مَوتٌ مُختَلفٌ[1]: روايةُ الوريثِ الإشكالي

مَنْ أنا؟ وكيف للذات أن تستردَّ ذاتَها؟

د. حسن المودن
مراكش. المغرب
elmouden63@gmail.com

تاريخ الاستلام: 21/03/ 2017م
تاريخ القبول: 25/04/ 2017م

الملخص:

نفترض في هذا البحث أن الكتابة الروائية عند محمد برادة تتميز بهذه العودة إلى الذات، وإلى السؤال الإشكالي: مَنْ أنا؟ لكنها العودة التي تبحث عن أشكال أخرى للقول والكتابة، بعيدًا عن الشكل الأوتوبيوغرافي التقليدي، وبعيدًا عما يسمى بالتخييل الذاتي. فالأمر يتعلق بشكلٍ سرديٍّ يمكن تسميته بـ: رواية الأنا، وتمكن قراءته بوصفه أوتوبيوغرافية وبوصفه رواية؛ وأسئلته جديدةٌ تدور حول هذا الوريث الإشكالي الذي يعود إلى إرثه الشخصي والعائلي يسائله ويُقوِّمه، وهو يفكر في مسألة نقل هذا الإرث وتوصيله إلى الأجيال اللاحقة.

الكلمات المفاتيح:

رواية – رواية الأنا – الوريث الإشكالي – نقل وتوصيل...

(1) . محمد برادة، موتٌ مختلفٌ.

Different death: The problematic Heir

Dr. Hassan Elmouden
Marrakech. Morocco
elmouden63@gmail.com

Abstract:

I assume that this question: who am I? is the central question in the novels of the Moroccan writer Mohamed Berrada. But this issue is addressed in a different way: it's more of this classic autobiographical form, nor this new autobiographical form called: fiction... It is a form that can be called: novel of I, and that can be read as a novel and autobiography at the same time, and dealing with emerging issues: can - we say of this problematic heir who questioned his legacy, and the question of the transmission of this legacy to his son, to the new generation...

Keywords:

Novel- novel of I- problematic Heir - Transmission..

١ - من «التخييل الذاتي» إلى «رواية الأنا»:

ننطلق في بحثنا هذا من افتراض مفاده أن الكتابةَ الروائيةَ عند محمد برادة، من روايته الأولى: **لعبة النسيان** (1987) إلى روايته الأخيرة: **موتٌ مختلفٌ** (2016)، تتميز بهذه العودة إلى الذات، وإلى السؤال الإشكاليِّ: مَن أنا؟؛ لكنها العودةُ التي تبحث عن أشكال أخرى للقول والكتابة بعيدًا عن الشكل الأوتوبيوغرافيِّ التقليديِّ، وربما يعود السبب في ذلك إلى أن هذه العودةَ تَحدُث في عصر الشكِّ: الشكّ في الأشكال السردية السائدة، وخاصة في قدرة الأوتوبيوغرافيا التقليدية على تحليل الهُوية والوصول إلى حقيقة الذات؛ والشكّ في خطابات اليقين، في المُثُل السياسية والخطابات الإيديولوجية بعد الاضطرابات الكبرى التي يشهدها المجتمع الإنساني في العصر الراهن: «.. بدأتُ يقول الساردُ- **أفقدُ إيمانيَ القديمَ بأن هناك معنًى للعالم باتجاه التطور والتقدم.. أنا أعتبر الشكَّ ملازما للبحث عن رؤية متوازنة..**»[1].

وهكذا، فالروايةُ الأخيرة، كما الروايةُ الأولى، تبحثُ عن شيءٍ يُناسبُ الشكوكَ التي ألقتْ بها العلومُ الإنسانيةُ، والتحليلُ النفسيُّ خاصة، تجاهَ الأوتوبيوغرافيا التقليدية: تبحثُ عن شكلٍ سرديٍّ يمزج بين الواقعيِّ والتخييليِّ، ويأخذ بعين الاعتبار الجزءَ التخييليَّ الموجودَ في كلِّ تمثُّلٍ للذات، ويكشفُ إلى أيِّ حدٍّ يستطيع الصوغُ التخييليُّ للمادة الأوتو/ بيوغرافية أن يُعبِّرَ عن الذات أكثرَ من أيِّ جزءٍ واقعيٍّ حقيقيٍّ من وجود هذه الذات.

بالنظر إلى روايته الأولى (1987)، عَملتْ العديد من الدراسات النقدية على تسمية الشكل السرديِّ الذي ولَّده ذلك البحثُ عن أشكالٍ جديدة للقول والكتابة بـ: **التخييل الذاتيِّ**، خاصةً وأن الكتابةَ في هذه الرواية الأولى تأتي خارجَ إيقاع الزمن الكرونولوجيِّ، وتُعدِّد الرواةَ، ولا تؤمن بوجود نقطة انطلاق واحدة ووحيدة للمحكيِّ الأتوبيوغرافيِّ، وتشتغلُ باللغة الشعرية، وتتغذَّى من التحليل النفسيِّ، وتستثمر الاستيهامات..؛ ومع ذلك، فإني أميلُ إلى تسمية هذا الشكل الجديد، وخاصةً في روايته الأخيرة (**موتٌ مختلفٌ**، 2016)، بما يقترحه الناقدُ الفرنسيُّ المعاصرُ فيليب فوريست (2001)[2]: **روايةُ الأنا** Roman du Je، وذلك للأسباب الآتية:

- إن الكتابةُ الروائيةُ عند محمد برادة، في افتراضي، بعيدةٌ عن تلك الأنا المتمركزة داخل الأدب L'ego littérature «التي غرق فيها التخييلُ الذاتيُّ، ذلك لأنها كتابةٌ لا تتبنى تلك الأنا التي يطغى التخييلُ في صنعها وإنتاجها، كما لا تتبنى ذلك الأدبَ غيرَ المتعدّي Littérature intransitive (بتعبير رولان بارت) الذي لا يعتني إلا بذاته وبمشاكله الخاصة الشكلية والجمالية، بل إنها كتابةٌ تتميز، وبالنظر إلى سياقها الأدبيِّ والثقافيِّ والتاريخي، بالعودة إلى الأدب المتعدي[3]: فالأمرُ يتعلق دوما، عند محمد برادة، بكتابة **شيء ما**، وقد يَصدُر هذا الشيءُ عن الواقع أو الذات أو العائلة أو التاريخ

(1) موتٌ مختلف، ص200.

(2) Philippe Forest, Le Roman.

(3) Dominique Viart (Direction), Paradoxes du biographique.

أو الذاكرة... فالكتابةُ عنده تنشغل دوما بشيء يقع خارجَها، ومن أهم هذه الأشياءِ مسألةُ التعبير عن الذات؛ والذاتُ هنا ليست كائنًا من دون محددات، ووظيفةُ الكتابة هي أن تُسائلَ الذاتَ من خلال العنصر العائليِّ الذي يؤسِّسها، ومن خلال الأصول التي تُكوِّنها، وأن تكشفَ كيف تقولُ هذه الذاتُ حكايتَها العائلية، وكيف تحلم فتُكسِّرُ أو تعيدُ بناءَ ما يربطها بهذه الحكاية / التاريخ histoire / Histoire: «لكنني **أسأل: لماذا يمتنع البشرُ، في عناد، عن النظرِ إلى ما سَبَقهم وإلى ما هو معاصرٌ لهم، إلى كلِّ ما يثير التفكيرَ والتأملَ؟**»[1].

- الكتابةُ الروائيةُ عند محمد برادة، وخاصة في: **موت مختلف**، تُعيدُ الشرعيةَ إلى ضميرِ المتكلم الروائيِّ الذي كان في الروايات السابقة على التخييلِ الذاتيِّ، ولكن بخصائصَ جديدة: منها أن روايةَ الأنا، كما وضح فيليب فوريست[2]، تدعونا إلى أن نقرأها، في وقت واحد وبشكل متزامن، بوصفها أوتوبيوغرافيةً وبوصفها روايةً (تتألف **موتٌ مختلفٌ** من محكيين رئيسين: محكيٌّ بضمير المتكلم على لسان الشخصية المركزية، ومحكيٌّ بضمير الغائب يتولاه ساردٌ مجهولٌ تارة وراوي الرواة تارةً أخرى)، وذلك لأنه لا يمكن لأيِّ محكيٍّ ذات إلا أن يتحولَ إلى رواية: «أعرفُ أن استعادةَ حياتنا، بأيِّ شكلٍ نختاره، لا تساعدنا على حذفِ مقطعٍ أو صورةٍ من فيلم الذاكرة المُشتبك مع تفاصيلَ واستيهاماتٍ لا ندري من أين تنبثق. إلا أن العتبةَ العُمريةَ التي أجتازها الآن تجعل نظرتي، تقييمي لهواجسي، غَيْرَ ما كانا عليه من قبل. هل أستطيع الإمساكَ بالفروق؟ هل أتغلب على المتاهة التي تمتدُّ أمامي كلما استرجعتُ سيرورةَ حياتي؟»[3]. وهذه أسئلةٌ تكشف الفرقَ بين التخييلِ الذاتيِّ الذي يحب أن تسبحَ أناه في مياه «الخياليِّ Le fictif» الذي ينتمي إلى مجال المتخيل L' imaginaire، وبين رواية الأنا التي تستخدم التخييلَ باعتبار وظيفته في السؤالِ والتحليلِ والتوضيح Fonction élucidante[4]، واعيةً بأن السؤالَ الإشكاليَّ الأساسَ هو: كيف للذاتِ أن تستردَّ ذاتَها؟

- الكتابةُ عند محمد برادة تثير مسألةَ توصيلِ الموروث وتبليغه إلى الأجيالِ الجديدة، فهذا السؤالُ الأخيرُ حول وظيفةِ التخييلِ يتفرع إلى سؤالين إشكاليين: الأولُ، ألا يستدعي الأمرُ أن تمارسَ الذاتُ، وهي تستردُّ ذاتَها، التأويلَ وإعادةَ التركيب؟ والثاني، لماذا تستردُّ الذاتُ ذاتها، ولأيِّ غايةٍ تفعلُ ذلك؟ ألا تبدو نصوص برادة الروائية، من روايته الأولى إلى روايته الأخيرة، وكأنها تحاول « إنقاذَ « ماضٍ ما، موروثٍ ما، وإيصالَه إلى الأبناء والأجيالِ الجديدة: فعندما يموتُ كائنٌ عزيزٌ، أو عندما يتقاعد مثقفٌ شاهدٌ على تحولات العصر، يكون من الضروريِّ إنقاذُ ما يمكن إنقاذُه قبل فوات الأوان.. ألا يعني ذلك أن هذه النصوصَ

(1) موتٌ مختلف، ص31.

(2) Philippe Forest, Le Roman, p16.

(3) موتٌ مختلف، ص9.

(4) بخصوص الفرق بين الخيالي والتخييلي، وبخصوص وظيفة التحليل والتوضيح، يُنظر:
Dominique Viart: «L'archéologie de soi dans la littérature française», in: Vies en récit, Formes littéraires et médiatiques de la biographie et de l'autobiographie, p107 137.

تستجيبُ لضرورةٍ حيويةٍ وملحاحة؟ ألا يبدو وكأن السؤالَ الإشكاليَّ في نصوص برادة، وخاصة في روايته الأخيرة، هو سؤالُ نقلِ الموروث وتوصيله إلى الأجيال اللاحقة: كيف نُعيدُ تركيبَ ذلك الماضي، كيف نُعيد تأويلَ ذلك الموروث، بالطريقة التي تُدرَكُ بها الأهميةُ الرمزيةُ لِمَا يُنقَلُ ويُعطى، أي الأهميةُ الرمزيةُ لهذه الأشياءِ التي لابد أن تبقى حيَّةً، بعبورها من يدٍ إلى يد، من أبٍ إلى ابن، من جيلٍ إلى جيل؟[1].

- روايةُ الأنا عند محمد برادة تتجلى جِدَّتُها في أنها تطرح مسألةَ الانتسابِ العائليِّ: في روايته الأولى: **لعبة النسيان** يحتفي بالأم، ويركز على علاقة الابن بأمه، متسائلا ما معنى أن ينتسبَ الابنُ إلى عالم الأمومة؛ ولكنه في روايته الأخيرة: **موتٌ مختلفٌ** يحتفي بالأب، ويركز على علاقة الابن بأبيه أو الأصح على علاقة الأب بابنه.. وفي الأحوال كلِّها، فهي نصوصٌ تستحوذُ عليها الوجوهُ العائليةُ بما يسمح بأن نتحدثَ في كل واحدٍ منها، وفي الوقت نفسه، عن محكيٍّ بوضع اعتباريٍّ إشكاليٍّ يَخلقُ تعالقات بين أشكالٍ سرديةٍ مختلفةٍ موضوعُها كلُّها هو الانتسابُ العائليُّ: **الروايةُ العائلية**، بالمعنى الذي يقصده فرويد، و**محكيُّ الانتساب العائليِّ**، كما نظَّر له دومينيك فيار، و**محكيُّ اليتيم**، كما يفهمه لوران دومانز.. وهي جميعُها تأتي لتضعَ مكانَ الأشكالِ الأوتوبيوغرافية التقليدية التي تعتمد محكيا كرونولوجيا للذات، شيئا آخرَ يكونُ عبارةً عن محكيٍّ يحقِّقُ من جديد، ويعيد مساءلةَ نَسب الذات وأصولها: من أجل أن تكونَ هُويةُ الذات في تحولٍ متواصلٍ ومتجدد، أيلزمها أن تبقى رهينةَ عوالمها الأصليةِ أم عليها أن تبحثَ عن عوالمَ أخرى وآفاقا جديدة؟ ما الموروثُ الذي ينبغي للوريث أن يستنيرَ به في طريقه: أهو الموروثُ المفروضُ الذي خلَّفه الآباءُ والأجدادُ في العالم العائليِّ الأصليِّ، أم هو الموروثُ الذي اختار الوريثُ أن ينتسبَ إليه عن وعيٍ واقتناع؟ ما معنى أن تنتسبَ الذاتُ عائليا: أينحصرُ ذلك في الانتسابِ الطبيعيِّ إلى عالم عائليٍّ اجتماعيٍّ أصليٍّ (الانتساب البيولوجي، الجغرافي..)، أم أن الانتسابَ الحقيقيَّ هو الذي يكون رمزيا ويشير إلى عائلةٍ فكريةٍ وثقافيةٍ سياسيةٍ اختارت الذاتُ بكل استقلاليةٍ وحريةٍ الانتماءَ إليها؟

- روايةُ الأنا عند محمد برادة تشتغل بهذه المنطقة البينيةِ التي يتقاطع فيها بعدان أساسيان: الأولُ يتعلق بـ**القبلية** Antériorité؛ **أي** بما قَبْلَ الذات، بماضيها الشخصيِّ والعائليِّ، بموروثها العائليِّ الأصليِّ، بالموروث الذي اختارتْ الانتسابَ إليه؛ والثاني يرتبط بـ**الداخلية** Intériorité، بداخلية الذات، بحياة الذات النفسية والذهنية (ومن هنا طغيانٌ أكبرُ للمحكيِّ النفسيِّ،

(1) لنلاحظ كيف كان نَقْلُ الموروث من الأب إلى الابن يسيرًا في أزمنة سابقة، كيف كان يتلقى منيرٌ معلوماتٍ وتوجيهات من أبيه بخصوص تاريخ دبدو وتاريخ الوطن وأمجاد الآباء والأجداد، وخاصة من المقاومين؛ وكيف كان منير يُعَلِّم ابنَه بدرًا: «**اللغةَ العربيةَ ويحكي له، قبل النوم، مقتطفات من قصص ألف ليلة وليلة... ومخيلةُ بدرٍ تتسع وتتسرب إليها عدوى الشرق الحالم، ولوثةُ الخيال الجامح الذي يَزيد في حجم الأمكنة والأزمنة..**» (ص128). لكن ذلك النقلَ والتوصيلَ، ذلك التواصلَ والحوار، لم يعدْ سهلا في العصر الراهن: «.. استحضرَ **علاقتَه المتوترةَ مع ابنه بدر. لا يستطيع أن يحددَ بالضبط عناصرَ التوتر بينهما، وفي الآن نفسه لا يعرف كيف يجعل الحوارَ معه منتظما كما كان إلى حدود بلوغه سنَّ العشرين..**»، موت مختلف، ص180.

بالمعنى الذي حددته دوريت كوهن، وحضورٌ أقلُّ للمونولوجات الداخلية).. لنتذكر داخليةَ الذات في علاقة بالأمِّ في الرواية الأولى: **لعبة النسيان** (1987)، ولنستحضر داخليةَ الذات في علاقة بموروثها، بأبيها، بابنها، في الرواية الأخيرة: **موتٌ مختلفٌ** (2016)، بحيث يبدو كأن المعرفةَ الأفضلَ للذات بذاتها لا تكونُ إلا من خلال الوجوهِ العائلية (الأم، الأب، الابن..) كما تتجلى من داخل النفسيةِ والذاكرة.. ولأن الروايةَ الأخيرةَ تركز على محطةٍ تَطبعُها أزمةٌ في الهُويةِ والانتساب، فلذلك جاءت روايةُ الأنا تتراوح بين القبليةِ والداخلية: بين محكيٍّ نفسيٍّ يكشف علاقةَ الذاتِ الشعوريةَ والفكريةَ بموضوع محكيِّها، وبين محكيِّ انتسابٍ عائليٍّ يعود إلى استرجاع موروثِ الذات ومساءلته وتأويله وإعادة تقييمه.. ومن جهةٍ ثانيةٍ، فإن اشتغالَ روايةِ الأنا بهذه المنطقةِ البينيةِ التي تتقاطع فيها القبليةُ والداخليةُ، بالمعاني المتقدمة، يعني أنَّ تَذكُّرَ ما مضى، واسترجاعَ ما وقع من قبل، لا يكون إلا في علاقة بحاضر الكتابةِ وتحت تأثيرها، بشكلٍ يجعلُ الكتابةَ نفسَها سؤالا إشكاليا، لأنها، وهي تبحثُ عن تضفير هذين البعدين تُجَنِّد مختلفَ الأشكالِ السردية الملائمة (الرواية العائلية، محكي الانتساب العائلي، محكي اليتيم)، وتلاعب الموادَّ الموروثةَ، وتلعبُ بالمواد البيوغرافية والأوتوبيوغرافية، بشكل يسمح لها بأن تشاركَ في تحقيق، في مساءلة، موضوعُها هو النسبُ والانتساب، هو هذا البحثُ في الهُوية الذي يوجدُ في قلبِ روايةِ الأنا..

٢- الوريث الإشكالي في «رواية الأنا»:

ماذا عن هذا الوريثِ الذي نفترضه إشكاليا في رواية: **موت مختلف**؟ ألا يمكننا أن نفترضَ بأن سؤالَ هذا الوريثِ هو: كيف السبيلُ إلى طرائقَ جديدة تسمح له بأن يلاعبَ الموتَ، وأن يلعبَ بروايته العائلية، وبمحكيِّ انتسابِه العائليِّ، وبمحكيِّ يُتمِه..؟

في الرواية الأخيرة: **موتٌ مختلفٌ**، يتقدم الوريثُ الذي نفترضه إشكاليا في صورتين: الصورةُ الأولى يمثلها الابنُ ذو الأصولِ المغربية، منيرُ ابنُ دبدو، الذي هاجر إلى فرنسا للدراسة، فقررَ الاستقرارَ هناك، وقطع صلاته ببلده ووطنه، فاشتغل مُدرِّسا للفلسفة بالمدرسة الفرنسية، وتزوج من امرأةٍ فرنسية، وأنجبَ منها ابنا، نشأ وشبَّ بين أحضانهما، قبل أن تنتهي علاقتهما بالانفصال أو بما يشبهه، وبعد تقاعده سيعود ليحيي صلاته ببلده وبموروثه الأصلي قبل أن يقررَ في النهايةِ الانتماءَ إلى موروثٍ إنسانيٍّ مشترك: فكر الأنوار؛ والصورةُ الثانيةُ يمثلها هذا الابنُ، بدرٌ، الذي ازداد بفرنسا من أمٍّ فرنسيةٍ وأبٍ ذي أصولٍ مغربية، نشأ وتربّى بفرنسا على مبادئ الأنوارِ وأفكارِ ثورة 68، قبلَ أن يكتشفَ أن في هُويته ونسبه شيئا إشكاليا. وأفترض أن محكيَّ الوريثِ الإشكاليِّ، محكيُّ منيرٍ بالأساس، يركز على محطتين حساستين: أسمي المحطةَ الأولى بمحطة «سؤالِ الروايةِ العائلية»، وأسمي الثانيةَ بمحطة «سؤالِ الانتساب العائلي». وكلُّ محطةٍ من هاتين المحطتين تُجسِّد تحولا إشكاليا في حياة

الوريث، وعبارة: **موتٌ مختلفٌ**، تُعبِّر، في كلِّ مرَّة، عن هذا التحول الإشكاليِّ: «وكثيرًا ما أضحك من حالة التأهب والاستنفار التي لجأت إليها لأحدد **الطريقَ المختلفَ** الذي سأسلكه خلال ما تبقى من عمري. (أصحح العبارة الأخيرة بيني وبين نفسي فأقول: **لأبحثَ عن موتٍ مختلف**)[1].

لابد من الإشارة إلى أن الروايةَ هنا تركز على محكيِّ الوريث الأول، وتنطلق من محطته الثانية التي تنطلق من حصوله على التقاعد وحدوث اضطرابات كبرى في الحياة العامة كما في الحياة الشخصية والعائلية، لكنه المحكيُّ الذي يستحضر الوريثَ الثاني بين ثناياه، وخاصةً في جزئه الأخير، ويثيرُ مسألةَ التواصل بين الاثنين، ومسألةَ كيفية توصيل ميراث إلى الأبناء يُعتبَر هو الأكثرُ انفتاحا على آفاقٍ جديدة بالنسبة إلى مستقبل الإنسان: فكر الأنوار.. ومع ذلك، فكلُّ واحد منهما (الأب، الابن) يعيش العلاقةَ بالموروث على طريقته الخاصة، فالأبُ ذو الأصول المغربية الذي اختار الاستقرارَ ببلد الأنوار غيرُ الابن الذي ازداد بفرنسا من أمٍّ فرنسية وأبٍ مغربيٍّ..

والسؤالُ الذي يفرض نفسَه هنا الآن: ماذا نعني بالوريث الإشكاليِّ؟ وكيف ساهمت المحطتان في ظهور أسئلة إشكالية مرتبطة بعلاقة الوريث بقَبْليته، بما ورثه من آبائه الطبيعيين (البيولوجيين)، أو من آبائه الرمزيين (آباء الإنسانية في الفكر والثقافة والسياسة: فكر الأنوار، ثورة 68، اليسار..)؟

ولأن المقامَ لا يسمح بالكثير من التوسع والتفصيل، أكتفي بالملاحظات الآتية، مركزًا بالأخصِّ على محكيِّ منير، الشخصية المركزية في رواية محمد برادة الأخيرة:

- دعونا في البداية نميِّز بين **الوريث الإشكاليِّ** و**الوريث غير الإشكاليِّ**، لنقل: الوريث الطبيعيِّ؛ فالأولُ تجسده شخصيةُ منير، السارد/ الفاعل الرئيس في الرواية، والثاني تمثله شخصيةٌ هي من أقرباء منير (ابن عمه) في مدينته الأصلية بالمغرب: دبدو، ويسمى: «صادق» (لنلاحظ لعبةَ الأسماء في هذه الرواية: منير، بدر، أيشيران إلى فكر الأنوار الذي يعلن الأبُ كما الابنُ أنه الموروثُ الذي يحدد، في النهاية، هُويتَهما ونسبهما؟ وصادق، أيشير إلى هذا الإنسانِ الطبيعيِّ الذي يظلُّ صادقا في انتمائه إلى عالمه العائليِّ الأصليِّ؟). وفي الأحوال كلِّها، فالوريثُ الطبيعيُّ، مجسَّدًا في شخصية صادق، هو هذا الذي يتميز، على حد تعبير الرواية[2]، بصراحته ولغته المباشرة، هو هذا الذي «لا يريد أن يجريَ وراء الأوهام... يفضل أن يبقى قريبا من العائلة... قُربُه من الأسرة ودبدو يَمنحانه، على الأقلِّ، نوعا من الأمان والاستقرار..»[3]؛ وباختصار، فإن الوريثَ الطبيعيَّ غيرَ الإشكاليِّ، أي صادق، «... يعيش فوق الأرض، يُعاين ما حوله من منطلق صلب، ويَقيسُ الأشياءَ والعلائقَ والناسَ من منظور بسيط لا يتعدى ما هو قائمٌ في الظاهر»[4] أما الوريثُ الإشكاليُّ فإنه هو هذا الذي عرفت

(1) موت مختلف، ص217

(2) موتٌ مختلفٌ، ص21.
(3) المرجع نفسه، ص22-21.
(4) المرجع نفسه، ص22.

حياتُه، على الأقلِّ في محطتين أساسيتين ركزت عليهما روايةُ الأنا (الشباب/ الشيخوخة)، تحولات ذاتٍ طابع إشكاليٍّ، بالنظر إلى أنها كانت، في كل مرة، تستدعي موتًا مختلفًا؛ أي إعادةَ النظر وإعادةَ تقييم العلاقة بالموروث الأصليِّ، بالعالم العائليِّ الأصليِّ، وبالموروثِ المتبنَّى في بلد الأنوار:

- يجري التعبير عن المحطة الأولى بما نسميه محكي «الرواية العائلية»، بحيث نجد الوريثَ الإشكاليَّ، منيرًا، هو هذا الذي وُلد ونشأ، مثلُ صادق، في مدينة دبدو المغربية، لكنه صار شابا، وأصبح يطمح إلى التغيير، إلى ولادة جديدة بعيدًا عن عالمه العائليِّ الأصليِّ: «منذ أربعين سنةً، كنت أعيش في دبدو مثلُه، يقول منير، غير أني **كنت محمولا على أجنحة الحلم، مشحونا برغبة عارمة في تغيير نمط حياتي**»[1] وسمينا هذه المحطة الأولى بـ «الرواية العائلية»، كما فهمها فرويد[2] وكما طبقتها مارت روبير[3]، وهي تعني أن الإنسانَ يكونُ في مراحل حياته الأولى معجبا بأبويه، لكن مع التقدم في العمر يكتسب حسًّا نقديا هو وليدُ الإحساسِ بالإحباط، فالعائلةُ الأصليةُ التي كانت مثاليةً قد أصبحت واقعيةً جدًا، ولا بد من البحث عن آباء آخرين أفضلَ وأسمى وأنبلَ، وذلك ما يعبِّر عنه منيرٌ بقوله: «حين أستعيد الآن **تلك الأيام**، تبدو لي مُختزَلةً في **حرصي على التفوق، ورغبتي في النزوح بعيدًا عن فضاء دبدو الذي كان يزداد ضآلة وانكماشا، في عيني**، كلما انتقلت من سنة إلى أخرى»[4]؛ ويوضح في مكانٍ آخر، فيقول: «هل كان الدافعُ إلى سفري، عدا الدراسة، هو **شعوري بما يشبه الاختناقَ في دبدو ووجدة؟**...» لم أكن أدرك تماما ذلك الشعورَ المبهمَ الذي كان يوحي إليَّ أن **السفرَ إلى فرنسا هو ما سيفتح بابَ المستقبلِ أمامي. كنتُ في مطلع الشباب، وما درسته بلغة فولتير فتح أبوابا ومسالكَ في وعيي وثبَّت الحلمَ لديَّ بالانتقال إلى فضاء الحرية والتجربة المفتوحة على احتمالات مفاجئة** حين العيش على أرض حضارة مغايرة...»[5]. وفي الأحوال كلها، فالإشكالُ الأولُ الذي اعترض طريقَ منير هو: كيف السبيلُ إلى ولادة ثانية بعيدًا عن العالم العائلي الأصلي؟ فكان السفرُ خارجَ الوطن للدراسة بالفرصة الثمينة التي حققت هذه الرغبةَ في ولادة ثانية داخل عالم جديد بعيدًا عن العالم العائليِّ الأصلي الذي لم يعد جذابا بالنسبة إلى الذات: «**أنا كنتُ مشدودًا إلى عالم جديد بالنسبة إليَّ، حريصًا على النفاذ إلى أعماقه وإرواء عطشي إلى المعرفة، والإسراع**

(1) المرجع نفسه، ص 22.

(2) في البداية، قدَّم فرويد هذا النص القصير الشهير «الرواية العائلية عند العصابيين» إلى أوتو رانك من أجل إدراجه في كتابه: أسطورة ميلاد البطل، وهو كتاب صدر سنة 1909، وظهر في طبعة منقحة سنة 1913، ثم في طبعة موسعة بتقديم من إليوت كلاين سنة 1922، ونشر بعد ذلك في كتاب فرويد:
S.Freud, «Le roman familial des névrosés (1909)», in: Névrose, psychose et perversion, pp157-160.
- Otto Rank, 1909 «Der Mythus von der Geburt der Helden. Versuch einer psychologischen Mythendeutung», Schriften zur angewandten Seelenkunde. Leipzig & Wien. Trad, franc: Le mythe de la naissance du héros.

(3) Marthe Robert, Roman des origines et origines du roman.
بالنسبة إلى الترجمة العربية: مارت روبير، رواية الأصول وأصول الرواية، ترجمة: وجيه أسعد.

(4) موت مختلف، ص16.

(5) المرجع نفسه، ص61.

بالاندماج في فضاء يوقظ الحواسَّ والعقلَ ويستحثُّ الفضولَ. اخترت دراسةَ الفلسفة ثم تدريسَها بعد التخرج؛ والتحقتُ بجمعيات ثقافية، وانخرطت في نقابة يساريةٍ محمولا على جناح أحزاب اليسار المعارضة (...) **كنتُ كأني قيدَ الولادة مرة ثانية ولا أريد أن أعرقلها بزيارة دبدو أو الالتفات إلى ما يجري في أنحاء الوطن**. كنتُ أقول مع نفسي: **لتتمَّ الولادة أولا، وبعد ذلك ألتفتُ إلى ما أستطيع أن أفعله وقد اكتملتْ شخصيتي وفقَ معرفة ومبادئ أعادت خَلْقي واندماجي في عالم اليوم**»[1].

- أما المحطة الثانية، فإنها ترتبط بتقاعد منير وشيخوخته، بخيبته وانكساره، هل نقول بفشل روايته العائلية: «منظرٌ غيرُ مريح أن نرى المبادئ الجميلة، الواعدة، تشيخُ على وجوه الثائرين السائرين نحو الانهزام»[2]. ويجري التعبير عن هذه المحطة بما نسميه «محكي الانتساب العائلي»، وهو محكي يتميَّز بعودة ما كان مكبوتا في المحطة الأولى (العلاقة بالعالم والموروث الأصليين)؛ أي أنه يرتبط بأزمة في الهوية والانتساب، تعود بلا شك إلى أسباب، من أهمها غيابُ الدلائل repères، فنحن أمام إعادة مساءلة للدلائل والقيم والمرجعيات والخطابات والرغبات، أمام إعادة مساءلة للذاتية وللغيرية[3]: «خلال أصباح متوالية، **بعد التقاعد،... تطفو في ذهني مشاريعُ وأسئلةٌ طالما تفاديتها** عندما كانت حَوْمةُ العمل والنشاط التطوعيِّ تستحوذ عليَّ. في مُقدَّم ما يطفو **علاقتي المكبوتة بـ«دبدو» والوطن، وتجاهلي لحصيلة المسار الذي سرتُ فيه محمولا على أجنحة الحُلم والافتتان** ومنطق الحدس والقلب»[4]. ويتميز محكيُّ الانتساب العائلي الذي يعبِّر عن هذه المحطة بالعودة إلى التعرف إلى موروث الآباء والأجداد الأصليين من جديد، إلى البحث في تاريخ الوطن ولغته وذاكرته وثقافته الأصلية: «.. **تنبَّه إلى سهوه الطويل عن ثقافته الأولى العربية التي وضعها على الرفِّ منذ تعرَّف على لغة فولتير وآفاقها المشرعة.. عندئذ بدأ يقرأ بالعربية وزار عدةَ أقطار في المشرق.. وغاص في إشكالية لها جذورٌ في تاريخه الشخصي وتاريخ التربة التي استقبَل النورَ في أرجائها..**»[5] والأكثرُ من ذلك، فالذاتُ في محكيِّ انتسابها العائليِّ تعود إلى مساءلة ما يعنيه عالمُها الأصليُّ بالنسبة إليها، تحفر عميقا في دواخلها من أجل استجلاء معانيَ الوطن ومسقط الرأس: «كل ليلة،...، يَجفوني النومُ، وأجدني أمام نفس السؤال الذي كان وراء زيارتي للمغرب: **ما موقعُ دبدو في نفسي لأنني أحسها متغلغلةً ما تزال في السويداء والوجدان؟ أعود إليها وقد انجلتْ أوهامُ الشباب، وتعبتُ من الجري وراء أحلام الثورة وتغيير الجلد، وأريد أن أعرف حقيقةَ شعوري داخل عالم**

(1) المرجع نفسه، ص ص13- 14.
(2) المرجع نفسه، ص115.
(3) D. Viart, «L'archéologie de soi dans la littérature française», p116-120.
(4) موت مختلف، ص20.
(5) المرجع نفسه، ص153.

ملتبس الحدود، مُختلَّ الإيقاع، كلُّ يوم هو في شأن؟»[1]. ولكن الذاتَ في هذه المحطة تُمسي موزعةً بين عالمين مختلفين، وتشعر كأنها مرة أخرى إزاء ولادة جديدة: «أحسُّ في هذه اللحظة، ...، أحسُّني **موزَّعًا بين ألق الغرب ومهارته التكنولوجية، وبين ما ترمز إليه دبدو من بساطة وعتاقة وبلًى وبُعْد عن دينامية المعرفة والخيال. أين تكون ذاتي مُرتاحةً في جلدها؟**[2]. وغيرُ بعيد عن ذلك: «أحسُّ كأني **عدتُ بعد ستة عقود من عمري إلى نقطة الصفر، نقطة البدء، هل هناك من بدء؟**»[3]. وباختصار شديد، فمحكيُّ الانتساب العائليِّ الذي يُعبِّر عن هذه المحطة، هو علامةٌ على عصرٍ موسوم بالقلق والشك، بالخيبة والفشل، علامةٌ على ذاكرةٍ مليئة بالثقوب والبياضات، علامةٌ على بحثٍ أركيولوجيٍّ في أشياء آلت إلى الضياع والاختفاء؛ فهو محكيٌّ تتجلى قيمتُه بالأساس في أنه يُحيي مسألةً جوهريةً وأصليةً في الأدب: أن تقولَ الذاتُ، في أقصى حدودِ الأسئلةِ الميتافيزيقية، شيئًا عن أصولها المجهولة، وأن تقود التخييلَ إلى هناك حيث لا يمكن لأيِّ بحثٍ أن يُقدِّم معرفةً: مَن أنا؟ من أين أتيتُ؟ وماذا ورثتُ؟ وهل يمكن للذات، الفرديةِ، أن توجدَ، وأن تستمرَّ في الوجود، من دون أن تتموضع داخل حكايةٍ فرديةٍ وجماعية؟ كيف نمارس الحفرَ في بقايا إرثٍ إشكاليٍّ ضاع وانتثر؟ كيف نعمل على إصلاح مصابيحَ ذاكرةٍ أقبرتْ العديدَ من الذكريات؟

ومنيرٌ الذي غادر بلدتَه الأصليةَ، دبدو، أواسطَ الستينيات، ليعودَ إليها بعد أكثرَ من أربعين سنة، ليس بالوحيد الذي يمثل شخصيةَ الوريثِ الإشكاليِّ، الممزق بين الغرب والشرق، وإن كانَ هو الأكثرُ حضورًا، فالأصح أنه يمثل جيلا سابقا، ويتحول هو نفسُه إلى جيل الآباء، بعد أن أنجب ابنا من امرأة فرنسية، أسماه: بدرًا، نشأ وشبَّ على مبادئ الأنوار وثورة 68، وظل يظن أنه من أبناء فرنسا، وأنه ينتمي أصلا إلى بلد الأنوار؛ لكن التحولات التي عرفها بلدُ الأنوار والعالمُ من حوله (انتشار التطرف أو العنف أو الإرهاب المنسوب إعلاميا إلى الإسلام والمسلمين، وازدياد العنصرية والكراهية عند الفرنسيين تجاه كل من ليس من أرومة فرنسية أصلية) جعلته يكتشف أنه ينتمي إلى موروثَيْن اثنين (الغرب/ الشرق)، هما ربما متعارضان، وأن في هُويته شيئًا ما يدعو إلى الخوف والقلق والشك والمساءلة: «الابن (مخاطبا أباه): «**ألستَ أنت من علمني التشبثَ بمبادئ عصر الأنوار واتخاذَها أفقا للمستقبل؟ (...) لا يتعلق الأمرُ بخطأ أو صواب. بل بوضعي أنا الآن بعد الأحداث المروِّعة المتتالية التي زعزعت فرنسا وانعكست على سلوك الناس وعلاقتهم بالقيم وبالذين ليسوا من «أرومة» فرنسية «أصيلة».. أشعر أن خطرًا يتهددني عند المنعطف. هل تلومني لأنني أكشف خوفي وحيرتي؟.. الآن وأنا في عز الشباب، يخيل إليَّ أن العالمَ أصبح**

(1) المرجع نفسه، ص23.
(2) المرجع نفسه، ص29.
(3) المرجع نفسه، ص30.

يواجهني بشراسة غير مسبوقة»[1]. وهكذا، يجد بدرٌ نفسَه أمام سؤال النسب والانتساب، داخل محيط مضطرب عنيف يشككه في هُويته: «وبدأ بدرٌ يحسّ أن **سلوكَ زملائه في العمل اتجه إلى نوع من الحذر والتحفظ على رُغم أنهم يعرفون أن أمَّه فرنسيةٌ وأنه لا يحرص على إعلان انتمائه إلى أي دين**»[2]. وسؤالُ الانتساب سيدفعه إلى زيارة المغرب، وإلى إعادة تركيب موروثه المزدوج وإعادةِ تقييمه.

- موتٌ مختلفٌ يفهمه هذا الوريثُ الإشكاليُّ (منير بالأساس) بأنه تحولٌ في الهُوية، أو الأصحُّ أنه يعني هويةً في تحولٍ متواصل، فالهُويةُ لا ينبغي لها أن تكون جامدة، منغلقة على ذاتها: «.. نيتشه يهمس بأن ذلك يقضي **أن نترك للكينونة أن تكون؛ ...؛ والجوهرُ ليس ثابتا، مكتملا، وليس معطى دفعة واحدة، بل هو مشدودٌ إلى الصيرورة والتحول..**»[3]. وذلك لأن الهُويةَ لا يمكن أن تتحول، مع الزمن، إلا إلى طبقات من الأنوات: «... **تراكمُ الأنوات داخلي**: فأنا هو **منيرٌ الطفلُ ثم المراهقُ الحالمُ بأوربا**، وأيضا أنا هو **منيرٌ الذي أمضى أكثرَ من أربعين سنة في مجتمع له تاريخٌ مختلف، وامتلأ ذهنُه بأفكارِ الأزمنة الحديثة، وعاين التحولات المتسارعة واهتزازَ القيم على أرض الواقع، وذاق مرارةَ الخيبة وهي تستوطن، على غفلة، مناطقَ من نفسه..**»[4]. ومعنى ذلك أن المحكيَّ الهُوَوِيَّ هنا يقدم تصورًا عن الإنسان باعتباره «طبقات من الهُويات المتتابعة»[5]، فالهُويةُ تتميز بالتعدد والتراكب، وتتأسس في شكل طبقات من الحيوات السابقة، بما يجعلنا أمام هُويةٍ فرديةٍ، منفتحة ومتحولة، متعددة ومركَّبة: «كان هذا طموحي أيضا: أن **أنعتقَ من سياجِ هُويةٍ موروثة منغلقة، لأرتادَ رحابَ هُويةٍ مشرعةٍ على قاراتِ الدنيا..**»[6].

- ومع ذلك، وعلى الرُّغم من هذا الإيمان بأن الهُويةَ هي دوما في تحولٍ وصيرورة، فإن الواقعَ أن هناك شيئا محددًا ثابتا، ظلت الذاتُ تدافع عنه، وتبرر أسبابَ الانتساب إليه، من أجل أن تجدَ مَخرجا للأزمة التي كان موروثُها الإشكاليُّ من أسبابها الأساس، ومن هنا فضلنا صيغةَ الصفة المشبهة (الوريث)، التي تدلُّ على الثبوت، فضلناها على صيغة اسم الفاعل (الوارث): ففي شبابه، اختار منيرٌ أن ينتسبَ إلى بلد الأنوار، وأن يستقرَّ به، وأن ينسى أو يتناسى بلدَه الأصليَّ؛ وبعد تقاعده وتقدم السن به، سيقرر في النهاية أن يختبرَ فكرَ الأنوار في وطنه الأصليِّ من دون أن يتخلى تماما عن بلد الأنوار.. ما يعني أن موروثا معينا (فكر الأنوار) يظل الشيءَ الثابتَ الذي من خلاله تحدد الذاتُ هُويتَها ونسبَها، والاسمُ الشخصيُّ للوريث الإشكاليِّ، في صورتيه: منير/ بدر، يدلُّ على هذا الشيءِ الثابتِ في الهُوية الشخصية: الانتسابُ إلى فكر الأنوار: «هناك إذن جوهرٌ يحددني، وعليَّ أن أستجليه وأغذَّ السيرَ لأصلَ

(1) المرجع نفسه، ص 197198.
(2) المرجع نفسه، ص157.
(3) المرجع نفسه، ص236.
(4) المرجع نفسه، ص ص24 25.

(5) Laurent demanze, Encres orphelins, Pierre Bergougnioux, G - rard Macé, Pierre Michon; Paris, Editions José Corti, 2008, p 59, p59.

(6) المرجع نفسه، ص201.

إليه وأعانقَه لتكتملَ الذاتُ وتصبحَ على بينة من رغباتها وأهدافها في الحياة... اهتديتُ بما سطره نيتشه في كتاباته.. وجدتُ عنده ذلك الحبَّ المطلقَ للحياة التي يعتبرها مَعينا للإحساس ورفضِ وطأةِ الموروثاتِ المحنطة. أتساءل مع نفسي: ألا يعود شغفي بعصر الأنوار إلى ذلك السياق الحرياتيِّ الذي واكب ولادتَه وألهمَ فلاسفتَه وكُتَّابَه إلى رصد الحياة وإبراز صيرورة القيم..؟» (نفسه، ص 2t6).

٣. خصائص «رواية الأنا»:

وختامًا يمكن أن نختزلَ أهمَّ خصائصِ رواية الأنا عند محمد برادة فيما يأتي:

- روايةُ الأنا تعني أن نكتبَ عن تلك المحطاتِ المأزومةِ من حياتنا، تلك المحطات التي تستدعي موتا مختلفا، ولادةً ثانية: روايةُ الأنا هي أن نعرفَ، على حدِّ تعبير الرواية، «كيف نكتبُ ونحن نستحضرُ الموتَ أفقًا لنا ونتحدثُ عن حبوطٍ وفشلٍ ومأساة؟..».
- روايةُ الأنا تعني أن نكتبَ عن وعي بأن العصرَ الراهنَ لم يعد متأكدًا جدًا من هذا التقدم «نحو الأمام»، فالأسسُ التي يستند إليها خطابُ التقدم قد أصابها الإفلاسُ والانهيار؛ ومن هنا صار من الأنسبِ أن يُسمَّى بعصر القلق والشك؛ ومن هنا أيضا صارت روايةُ الأنا مكرَّسةً للأب وللرمزية الأبوية: فالأبُ يُمثِّلُ السلطةَ، والمعرفةَ التاريخيةَ والاجتماعية، والأبُ هو الذي يُمثِّلُ الخطابَ، ويبدو كأن الخطابَ لم يعد قائما ولا مسموعا بسبب فشلِ القيم والمُثُلِ والاعتقادات، أو ربما بسبب وجود ما يسميه دومينيك فيار بتلك «القطعة المفقودة»[1] في خطابِ الأب: فالأبُ منيرٌ لم يكن يُحدِّث ابنَه وزوجتَه عن أصوله، ولم يبادر إلى دعوتهما لزيارة بلده الأصليِّ إلى أن قام كلُّ واحد منهما بذلك بمبادرة شخصية..؛ هناك شيءٌ مغيَّبٌ ومفقودٌ؛ هناك صمتٌ[2] في خطاب الأبِ يؤدي إلى انقطاع الخيطِ الرابطِ بين الأبناء والآباء، ويستدعي ذلك سوءَ الفهم والقلق والشك..؛ في خطابِ الأب، يبدو كأن هناك، في كل مرة، تجربةً كبيرةً في الانفصالِ وفكِّ الارتباط (الانفصال عن دبدو في مرحلة الشباب بعد اختيار باريس؛ الانفصال عن دبدو في مرحلة الشيخوخة بعد اختيار الدار البيضاء / باريس).
- ومع ذلك، فأن تكون روايةُ الأنا مكرَّسةً للوجوه العائلية، والأبوية بالأساس، وأن تعود إلى طرح مسألةِ الهُويةِ والأصلِ والانتساب، فإن ذلك لا يعني تراجعا أو ارتدادًا عن الاختيارات السابقة: «أنا الآن، أكثر من أي وقت مضى، مستعدٌّ لمحاربة الدعوة إلى الارتداد إلى ما هو مظلم في الماضي. وإذا كنت أفكر باستمرارٍ في مسقط رأسي بعد تقاعدي وأتطلع إلى العودة، فلأنني أبحث عن بصيص أمل.. أقاوم اليأسَ كي لا أغدو حيا/ ميتا في ظل هذا الكابوس المقيم..»[3]. وبهذا المعنى، فإذا كانت الوجوهُ

(1) Dominique Viart: «Le silence des pères au principe du récit de filiation», p103.

(2) Ibid, p103.

(3) المرجع نفسه، ص204-205.

العائليـةُ الأبويةُ تستحوذ على روايةِ الأنا، فذلك لأن الكتابـةَ في العمـق هـي نـوعٌ مـن التغريـب Défamiliarisation[1]، أي أنهـا هي هذا العبورُ النقـديُّ لكل الخطاباتِ والمعتقـداتِ والموروثات الفرديةِ والجماعيةِ المشتركة، هي هذا الإنصاتُ إلى ذلـك الشيءِ غيرِ المسموع، إلى تلك القطعةِ المفقـودةِ أو المغَـيَّبـةِ، إلى تلك الغرابـةِ المقلقةِ التـي تحـدَّثَ عنهـا فرويـد: أن نكتـبَ يعني أن ننفـصلَ عن العائليِّ والمألوفِ من أجل أن نُـولَـدَ من جديد، من أجـل أن ننطلقَ من جديد، ذلك لأن الكتابةَ، في أقصى عنفها التحليليِّ، تريد أن تواجهَ الموتَ وأن تكونَ قُـوةً للفرح والحياة.

بيبليوغرافيا:

- مارت روبير، روايـة الأصول وأصول الرواية، ترجمة: وجيـه أسعد، منشورات اتحاد كتـاب العرب، سوريا، ط1، 1987.
- محمد برادة، موتٌ مختلفٌ، رواية، نشر الفنك، الدار البيضاء، 2016.
- Dominique Viart (Direction), Paradoxes du biographique, Revue des Sciences Humaines, n°263, automne 2001.
- Dominique Viart, «L'archéologie de soi dans la littérature française», in: Vies en récit, Formes littéraires et médiatiques de la biographie et de l'autobiographie, ed. Nota Bene, Québec, 2007.
- Dominique Viart: «Le silence des pères au principe du récit de filiation», Etudes françaises, Vol. 45, N3, 2009.
- Laurent demanze, Encres orphelins, Pierre Bergougnioux, Gérard Macé, Pierre Michon; Paris, Editions José Corti, 2008.
- Marthe Robert, Roman des origines et origines du roman, Paris, Grasset, 1972, rééd. Gallimard, coll. Tel, 1977.
- Mathilde Barraband: «Héritage et exemplarité dans : Demain je meurs: L'œuvre de dé- familiarisation de Christian Prigent», Etudes françaises, Vol.45, N3, 2009.
- Otto Rank, 1909 «Der Mythus von der Geburt der Helden. Versuch einer psychologischen Mythendeutung », Schriften zur angewandten Seelenkunde. Leipzig & Wien. Trad, franc: Le mythe de la naissance du héros. Paris, Payot, 1983.
- Philippe Forest, Le Roman, Le Je, Ed. Pleins Feux, Nantes, 2001.
- S.Freud, «Le roman familial des névrosés (1909)», in: Névrose, psychose et perversion. Paris, Presses Universitaires de France ,1973.

(1) Mathilde Barraband: «Héritage et exemplarité dans : Demain je meurs: L'œuvre de dé- familiarisation de Christian Prigent», Etudes françaises, Vol.45, N3, 2009, p58.